داخل أسوار الفقر

للأستاذ علي حيدر الركابي

كانت حياتها مثل نفسها ، واضحة المعالم وخالية من العقد وكانت لهذه الحياة البسيطة حدود ضيقة عاشت في داخلها ولم تكد تحس بما وراءها .

ما عرفت لها أماً بل عرفت نفسها أماً لإخوتها الصغار تزعاهم وهي لا تكبرهم إلا قليلا وتقوم على خدمة أبيها . انصرفت إلى أداء واجبها نحوهم جميعاً بكل ما أوتيت من إخلاص وقوة ومعرفة . أما الإخلاص فلم يكن من النوع الذي تعرفه المعاجم أو يعرفه الناس في مجتمع أرقى بل كان شيئاً مبهماً موروثاً تحركت به غريزة هذه الفتاة الريفية وما كانت لتستطيع تفسيره بالألفاظ حتى لو أرادت ذلك ، بل كان يدفعها دفعاً عفوياً نحو الحدب على إخوتها لأنهم أضعف منها ولأنها أكبرهم ونحو خدمة أبيها لأنه أبوها ، وحسبها أنه أبوها تبذل له الطاعة من جهتها ويتولى من جهته حمايتها من أخطار مجهولة . أما القوة فبدأت ضئيلة ثم نمت بنموها وهي في الحالين قوة فتاة ريفية سليمة الجسم أما المعرفة فهي مزيج ابتدائي من عادات وتقاليد انتقلت إليها شيئاً فشيئاً من أبيها أو جاراتها أو عابري السبيل تلتقط من هذا كلمة ومن ذاك أخرى فتتشكل من مجموع ما التقطت فلسفة ابتدائية للحياة أساسها القناعة والتسليم . ولما عجزت تلك (المعرفة) العجيبة عن مقاومة المرض الذي نزل بإخوتها ثم الموت الذي اختطفهم الواحد بعد الآخر عملت تلك الفلسفة في نفسها عملها فطأطأت رأسها للقدر المحتوم وإن دهشت إذ لم يصبها ما أصابهم وأرجعت ذلك إلى عوامل مختلفة ، ولم يكن ليخطر في بالها أنها إن سلمت فلم يكن ذلك إلا بفضل من الله وحده .

كانت حياتها مع أبيها في عرف الناس حياة بؤس وشقاء ولكنها ما كانت لتفكر في ذلك لأنها لم تعرف غير البؤس والشقاء : في قلبهما ولدت وعليهما فتحت عينها ثم في كنفهما نشأت وترعرعت . فكانت حالة البؤس والشقاء هي الحالة الطبيعية ، وأما ماسواها فشاذ . ولم يكن بها تطلع لسواها أو قدرة على المفاضلة بينها وبين سواها . كان السواد هو اللون الطاغي على كل ما يتصل بها من مسكن وملبس ومأكل فإذا دخل على هذا السواد بياض فهو ضئيل ولا يبدل ألوان حياتها القاتمة بما هو أزهى بل جل ما يتوصل إليه هوان يحولها أحياناً إلى لون الرماد !

وكما يعيش الموسرون في عزلة غافلين عن كل شيء خلا مالهم الموروث أو الكنوز ورفاههم المستقر ، كذلك عاشت هي في عزلة تامة غافلة عن كل شيء خلا فقرها الموروث وضنكها المستقر

ثم دخلت حياتها حالة جديدة رافقها من الأوجاع والظواهر الجسدية ما أفزعها ولكنها ما لبثت أن اطمأنت إليها إثر ماتولتها به إحدى جاراتها من شرح وإرشاد ثم نسيتها تماماً حين انتقلت من دار أبيها إلى دار بعلها فتابت تلك الآلام الجسدية في نوع جديد من النشوة ما عتم أن احتل مكانه التقليدي بين معالم حياتها الرتيبة.

لم تكن دار أبيها داراً بالمعنى المعروف عند الناس بل كانت بقية من بناء متهدم في طرف القرية ليس له مالك على ما يظهر ، أو إن كان له مالك ، فلم يكن له به حاجة أو اهتمام . ولم يكن انتقالها إلى دار زوجها عرساً بالمعنى المألوف لأن أباها كان غريباً عن تلك القرية فلم يكن له فيها أهل أو عشير ولم تسمح لها حياة الكدح بأن يكون لها صواحب وأتراب ، وكان زوجها كذلك غريب الدار . فلولا بعض الجيران وبعض رفقاء الزوج ولولا عدد من الناس لا يكاد يتجاوز أصابع اليد لما ارتدى ذلك الانتقال طابعه الخاص ، ولولا محاولات قامت بها بعض جاراتها بدفع من قوة أجيال من التقاليد الموروثة لما أزهرت حياتها قليلا للمرة الأولى والأخيرة ولما اطرحت ألوانها الباهتة إطراحاً قصير الأمد

ولم تكن دار زوجها كذلك داراً بالمعنى المعروف بل كانت واحدة من تلك الأكواخ الضيقة الحقيرة يبتنيها العمال الزراعيون في أطراف المزارع ليكونوا على مقربة من الحقول التي يعملون فيها مأجورين ، يبنونها بأيديهم من التراب المجبول بعرقهم فلا يكلفهم البناء مالا . وكما يعيش النمل في حفر يستقطعها من أرض الله

كذلك يعيش هؤلاء العمال فى تلك (الحفر) الطينية المسماة بقرى العمال يستقطعونها من أرض المالك ، وكما يروح النمل ويغدو بصمت وإصرار حاملا إلى تلك الحفر المؤن التى تقيه عاديات الزمان كذلك يروح هؤلاء العمال ويغدون بين الحقل والكوخ صامتين صابرين ساعين إلى الحصول على قليل من الزاد يتبلغون به ولا يكاد يقى أجسامهم المكدودة عاديات الزمان ، وكما يعمل النمل بإخلاص منصرفاً بتمامه عن العالم الخارجى الذى لا يعرفه ولا يفهمه كذلك يفنى العمال فى عملهم ولا يكادون يحسون بما هو خارج عن عالمهم، وكما ينظر العالم الخارجى إلى النمل فيراه مخلوقاً أسود ضعيفاً وحقيراً لا يستحق الاهتمام كذلك ينظر هذا العالم إلى سواد العمال وحقارتهم وضعفهم فيشيح عنهم بوجهه ، وكما أن النمل لم يلق الاهتمام إلا عند طائفة العلماء وهو اهتمام نظرى لا يجنى منه النمل نفعاً بل يعود نفعه على العالم والتاريخ كذلك اهتم بعض العلماء بشئون العمال اهتماماً نظرياً لا ينفع العمال أنفسهم فى قليل أو كثير بل يعود نفعه على العلم والتاريخ ودوائر الإحصاء . وأخيراً ، كما يعبث طفل بحفرة للنمل فيهدمها بقدمه ويسلط عليها الماء أو يعمد رجل إلى هدم الحفرة ليتخلص من تلك الحشرات البغيضة كذلك تعبث قوى الطبيعة بالأكواخ فيجرفها سيل أو يغمرها فيضان وتهدمها ريح أو تدكها صاعقة ، هذا إذا لم يتعمد هدمها السيد المالك نفسه فيجليهم عنها لسبب من الأسباب المتصلة بمصلحته هو التى ليس لها أدنى علاقة بمصلحتهم هم .

وما كانت هذه الأمور — كلها أو بعضها — لتشغل حيزاً من تفكيرها بل راحت تخدم زوجها بدفع من الغريزة ذاتها التى حملتها على خدمة أبيها قبله ، فهو رجلها وهو المكلف بحراستها من الأقطار المجهولة وهى امرأته وعليها له واجبان: الخدمة والطاعة. لم تكن حياتها عند زوجها إلا امتداداً لما اعتادته فى حياتها عند أبيها من جهد متصل وحرمان متأصل وبؤس وشقاء مقيمين . ومع ذلك فقد دخل على حياتها الثانية عنصران جديدان أولهما ذلك الحب الذى يولد فى قلب كل فتاة ليلة زفافها ولا سيما حين تكون فى سن مبكرة وحين يكون الزوج أول رجل عرفته ، وثانيهما الأوجاع التى كانت تتحملها من جراء ضرب زوجها إياها ضرباً قاسياً فى أكثر الأيام عقب عودته من الحقل فى المساء. ولكن بهجة ذلك الحب وأوجاع هذا الضرب ما لبثتا أن استقرتا فى حياتها استقرار العادة المألوفة فتحول الحب بلذته وبما يخلفه من الآلام فى الحمل والوضع ، إلى عمل رتيب آلى مثل طهى الطعام وغسيل الملابس وكذلك الضرب ولا سيما أنها باتت تتلقاه بشىء من القناعة لأنها أحست بأن الدافع إليه لم يكن رغبة من رجلها فى الإساءة إليها بل كان ناشئاً عن عوامل مستقلة عنها فما كانت هى إلا أداة طارئة للتنفيذ ، مما أكد لها ذلك أن الضرب لم يبدل شيئاً من العلاقة الاعتيادية القائمة بينهما وأنه كان فى الغالب حين يفرغ من ضربها يتركها برهة تكفكف دموعها ثم يعود إليها ليجرها ، ثم ليطرحها إلى جانبه فى فراشهما الحقير المشترك . ولو أوتيت ثقافة ووعياً لعلمت أن ما أحست به بغريزتها هو الواقع ، وأن ضرب زوجها لها ما كان إلا انتقاماً لا شعورياً من مجتمع ظالم لم يعترف بوجوده كانسان فثار فى نفسه وأراد أن يؤكد وجوده بشكل من الأشكال ، وهو إلى جانب ذلك انتقام لا شعورى من نظام مقلوب لم يعترف له بالقوة والرجولة فثار كذلك وأراد أن يدلل على أنه قوى وأنه رجل .

قضت مع زوجها أعواماً لا تعرف لها عداً أو حصراً لأن الزمان وأقسامه لا يدخل فى حساب من كانت حياتهم تسير على وتيرة واحدة لا فرق بين يومها وأمسها ولا يجىء غدها غاية تحرك شوقاً أو تحيى أملا . كان يمكن أن تعرف تلك السنين من عدد أطفالها وأعمارهم ولكن هذا كان متعذراً لأنها ولدت له عدداً كبيراً من الذكور والأناث اختطف الموت أكثرهم وأبقى بعضهم كما اختطف قبلهم إخوتها وبقيت هى . ولم يترك موتهم أثراً عميقاً فى نفسها وإن حزنت عليهم الحزن الشكلى التقليدى . كذلك فعلت حين أدركت أباها الوفاة . ولم يكن هذا وليد نقص فى حبها له أو لهم بل كان منشؤه ازدحام حياتها بأسباب الحزن والشقاء وهى عوامل لا تؤدى إلى كبير تماسك بالحياة أو عزوف عن الموت ، وفى دنيا رتيبة قاتمة يحتل الموت مكانه التافه بين سائر عناصر تلك الحياة التافهة .

وانتقلت مع زوجها وأطفالها من مكان إلى آخر فى الأرياف تبعاً لأهواء السادة مالكى الأرض والأرواح وسعياً وراء الرزق وهى إذ لم تختلف حياتها بين مكان ومكان ، لم تحزن لفراق كوخ ولا فرحت لاستقبال كوخ فالكل عندها طارىء وعابر والكل عندها موقت ما دامت صلتها بالأرض وأهلها صلة عابرة ولا تربطها بها أو بهم تلك الروابط الضرورية الثابتة التى تجعل من الأرض وطناً وتخلق فى نفوس سكانها عاطفة حب الوطن .

وفى مساء يوم مشئوم غادر رجلها الكوخ ولم يعد وآوت هى إلى فراشها وضمت إليها أطفالها تتولى فى غيابه حراستهم من أخطار مجهولة . وعلكها الشك حين تقدم الليل دون أن يعود ثم استولى عليها الخوف حين سمعت فى جوف الليل طلقات نارية وفى الصباح جاءها وكيل مالك الأرض وأبلغها مقتل زوجها إثر شجار نشب بين بعض الفلاحين وأن القتلى دفنوا حيث وجدوا وأن لا حاجة لإبلاغ الشرطة ما دام عدد القتلى من الطرفين متساويا فلماذا تحشر الحكومة فى الأمرفتزعج وتزعج وإن عليها أن تخلى الكوخ فوراً لمن سيحل فيه محلها . قال الوكيل كلمته هادئاً وانصرف مطمئناً وكأنه ما أتى ليخرب بيتاً بل ليوجه تعليماته اليومية حول سقاية أو زرع . لم يكن هناك قانون أو نظام أو عرف أو تقليد يرغم مالك الأرض والأرواح على أن يحول جزءاً يسيراً من ماله الوفير عن سبل صرفه — أو كنزه — الاعتيادية ليعوض به على أسرة بائسة فقد معيلها ، ولم يكن هناك قانون أو نظام أو عرف تقليدى يرغم الفلاحين على أن يمدوا يد المساعدة إلى أسرة كهذه ولا سيما أن ما يملكونه لا يكاد يسد الحد الأدنى من حاجاتهم البسيطة . ولكن المسألة ليست مسألة عرف أو نظام بل هى مسألة شعور الإنسان نحو أخيه الإنسان وهو شعور تسمو به نفوس الفقراء غالباً ولا تستطيع أن تسمو به النفوس الفقيرة قط

وهكذا غادرت الكوخ مع أطفالها مزودة بما جمعه لها الفلاحون زملاء زوجها الراحل من زاد حقير ومال قليل وتوجهت نحو المدينة البعيدة حيث قيل لها أنها قد تجد عملا تعيش به وتنفق منه على أولادها . كانت الرحلة طويلة وشاقة أدمت على خشونتهما قدميها . ولكن عطف عليها مرة سائق يقود سيارة لاشحن رق لحالها وأطفالها فأركبهم جميعاً وجنبهم تعب المرحلة الأخيرة . ودخلت المدينة على ظهر تلك السيارة فلم تحس بأنها دخلتها لأن الراحة النسبية خدرت أعصابها المرهقة فنامت ملء جفونها ولم تستيقظ إلا على صوت السائق يدعوها إلى النزول فنزلت وسحبت أطفالها لا تدرى إلى أين .

مرت فى رحلتها بمزارع غنية وحدائق غناء وقصور متكئة على تلك المزارع والحدائق ومرت بها على الطريق سيارات فخمة بحمولتها الثمينة من رجال أو نساء استدارت وجوههم وتكورت بطونهم ، وهنا فى المدينة سارت لأول مرة بين الأبنية الجميلة وفى الشوارع العريضة المستقيمة وعلى بعد خطوات من معالمها البارزة وعلى مسمع ومرأى من شبابها المتحمسين وقادتها المصلحين ولكنها لم تكد ترى شيئاً أو أحداً لأن انتقالها هذا إلى المدينة لم يكن ليختلف عن تنقلاتها السابقة منذ غادرت بيت أبيها فهى تسير منذ الأزل باحثة عن رزق ومأوى وهى قانعة بأن رزقها الكفاف أو أقل وأن مأواها خرابة أو كوخ — أو ما هو دونها . أما تلك الدور والأبنية التى مرت بها فليست منها فى شىء ولم تخلق لها ولا صلة لها بأهلها فدنياها غير دنياهم وقومها غير قومهم . كانت هذه الحقائق مستقرة فى أعماقها دون أن تتكلف عناء التفكير فيها ولذلك لم تكن لتشعر نحو هذه المجموعة الأجنبية من الناس بكره أو حسد فلو دعاها داع إلى الثورة عليها لما لبث الدعوة ولاتهمت الداعى فى عقله .

وكما عاشت فى غفلة عن القصور وسكانها وعن المدينة وأهلها كذلك أغفلها هؤلاء جميعاً وتابعوا حياتهم اليومية وهم قانعون بأنهم إنما يستوفون حقهم المشروع لأنهم الفئة التى اختارها الله وخصها من دون غيرها بالنعم والميزات . أما تلك الجموع الفقيرة التى تتدافع بالمناكب لتطعم من فتات موائدهم الزاخرة فهى فى نظرهم سوائم لا تستحق غير الفتات . إن هؤلاء السادة الأكارم أشبه بالدول المعظمة فى هيئة الأمم المتحدة . فى أيديهم الحل والعقد وفى جيوبهم مفاتيح الثروة المغلقة أبوابها فى وجه غيرهم ، وكل ما يجرى فى العالم يجرى بدفع منهم ولتأمين مصالحهم هم ، وحدهم لا شريك لهم ثم إن هؤلاء السادة الأكارم يتمتعون بما تتمتع به تلك الدول المعظمة من حق (الفيتو) وحق الاحتفاظ بسر القنبلة الذرية والدولار !

ولكن ، إنى لمثلها أن يعى شيئاً من ذلك ؟ ...

لاقت فى المدينة إعراضاً لأن الناس لا يستخدمون أماً مثقلة بعدد من الأطفال ولا سيما إذا كانت ريفية جاهلة قذرة . كانت تطوف فى النهار على البيوت طوافاً مضطرباً فتعرض خدماتها وتتلق الرفض مصبوباً فى قوالب مختلفة بعضها جميل وجلها بشع مخيف . وكانت تجود عليها بعض البيوت بشىء من الطعام أو اللباس أو بدراهم معدودات أما الليل فكانت تختار له جانباً من طريق تأوى إليه مع أطفالها فإذا ما ناموا ظلت هى ساهرة تحرسهم من المارة والهوام حتى إذا تقدم الليل ونقص عدد المارين وغلبها التعب

والناس استلقت على الأرض إلى جانبهم وأحاطتهم بذراعيها ثم استسلمت مرغمة للنوم . ولحظت بعد حين أن بعض المارة يتصدقون عليها بدراهم يلقونها بين يديها دون أن تسألهم ذلك لقد أدهشها الأمر في البداية ، ولكنها ما لبثت أن قنعت بأن الاستجداء هو العمل الوحيد المفتوح بابه لها فامتهنته وراحت تطلب الصدقة نهاراً من سكان البيوت وليلا من المارين . وفزعت من الشتاء حين دهمها بعطره وبرده فراحت توزع نهارها بين السؤال وبين البحث عن مكان تقضى فيه الليل بسلامة نسبية . ولكن الرطوبة الشديدة والبرد القارس لا يرحمان الفقراء الذين لا يعرفون دفء السكن والملبس والمأكل وليس في مقدورهم الاستعانة بطبيب أو اللجوء إلى مستشفى ففقدت بالبرد أحد أطفالها وواريه التراب في طرف المدينة دون أن تعلم بأن الدين فرض على الناس عند الوفاة طقوساً وصلوات .

الدين ؟ وما الذي تعرفه هي عن الدين سوى أنه لفظ يفيدها في القسم أحياناً هو وعدد من الألفاظ الأخرى كاسم الله والنبي وبعض الأئمة والأولياء حفظتها بالسماع دون أن تعلم أن لهم في السكون وظيفة تنفع في غير الإيمان والدعوات . كان هذا كل ما تعرفه عن الدين ، هذا وما سمعته من أبيها وزوجها عن زيارة يقوم بها الناس إلى بعض الأماكن المقدسة حيث يتعبدون ويدعون الله فيستجيب لدعواتهم . كانت تود أن تقوم بمثل هذه الزيارات لعل الله يمن عليها بما يساعدها على تربية أطفالها ولكن أنى لها ذلك وهي ما تزال تذكر رحلتها الأخيرة إلى المدينة بخوف ولا تحس بشجاعة كافية تدفعها إلى المخاطرة برحلة جديدة نحو المجهول .

وانقضى الشتاء تخفت آلامها بعد أن كاد البرد في شدته يقضى عليها وبعد أن كادت تعتقد أن الموت أدركها ذات ليلة فبكت وضمت إليها من تبقى من أولادها وأسلمت نفسها إلى غيبوبة طويلة أفاقت منها صحيحة قوية وأطفالها من حولها ينتظرون قيامها وقد أضناهم الجوع . ولم تدر مدى الزمن الذي انقضى وهي في حالة الإغماء ولكنها تعلم أنها بقيت لأولادها وتغلبت على الشتاء . وأتى الربيع فظنت أن قد زالت الأخطار ولكن يد الموت امتدت من جديد وتناولت من بين يديها ولداً آخر كان يهذى في ساعاته الأخيرة وكانت حرارة رأسه كحرارة الجمر ...

وأقبل الصيف فانتعشت قليلا وراحت تغسل أولادها وملابسهم في النهر دون أن تخشى عواقب البرد واستمرت تعيش عيشتها البسيطة قانعة بالقليل الذي تجود به أكف المحسنين فإذا ما هل شهر رمضان لم يكن له عندها سوى معنى واحد وهو أن عدد المتصدقين قد يزداد في الشهر المبارك ولعلها تستطيع بهذه الزيادة أن تبتاع لأولادها مزيداً من طعام أو تحصل لهم على لباس يحل محل الأطمار أو الخرق التي لا تكاد تستر أجسامهم .

وأقبل العيد فقضت ليلته في طواف الشارع على عادتها وقد انتصبت في جلستها على الأرض تحرس أطفالها النائمين حولها ، ولماذا لا تقضى ليلة العيد على حافة الطريق وهي واحدة من لياليها لا تفضلها في قليل أو كثير ؟ لأى سبب من الأسباب يسهر أطفالها ولم يكن ليؤرق جفونهم شوق إلى مفاجآته ؟ إن أملاً ضعيفاً ليداعب خيال هذه الأم فتتمنى أن يأتي لها العيد بما لم يحققه رمضان لكي تبتاع لأولادها بعض ما يحتاجون . ولم تكد عيناها تذوقان طعم النوم في تلك الليلة : لم يؤرقها ذلك الأمل ولا أقض مضجعها هم فالهموم لا تقض مضجع من لا يعرف غير الهموم ، والأمل لا يؤرق من لا تحقق له الحياة أملا واحداً ، بل هي لم تنم لأن الشارع لم ينقطع ضجيجه في تلك الليلة وظل زاخراً بجمهور من الناس يهرعون إلى الأسواق في آخر لحظة ليكملوا نواقص العيد الذي لن يكون عيداً إذا لم تزدحم مائدة الأسرة بكل ما يفرضه العرف ، وإذا لم ينل جميع أفراد الأسرة نصيبهم المقرر من الهدايا . إنهم يتضاحكون ويتدافعون في تلك الساعات الأخيرة ليحفظوا لصغارهم وكبارهم بهجة العيد . وما يكاد ينقطع عن الطريق سيلهم الصاخب حتى تقذف البيوت بأفواج جديدة من الناس وهم الأتقياء المتعبدون الذين يتسابقون إلى بيوت الله في الساعات الأخيرة من تلك الليلة الفضيلة ليكونوا في طليعة المؤمنين الذين يستقبلون فجر العيد بالصلاة والدعاء .

لو شاء إنسان أن يزور الدائرة الرسمية المختصة متسلحاً بعزم العلماء وبصبرهم ، ولو شاء أن يبحث بين أكداس الأوراق والملفات عن سجل هذه الأم وأطفالها — إذن لوجدهم في عرف الحكومة ، في عداد الأحياء من بني الإنسان الذين يحملون أسماء ولهم جنسية ودين .

بغداد علي حيدر الركابي

سكك حـــديد الحكومة المصرية

عرض الاعلانات بالمحطات

لقد وجهت المصلحة كل عنايتها إلى المحطات فاقامت بها لوحات خشبية أعدت خصيصاً لعرض الاعلانات فضلا عن أنها تبذل جهوداً صادقاً من وقت لآخر فى تجميل تلك المحطات حتى أصبح الاعلان فيها من أحسن وسائل الدعاية .

وتتقاضى المصلحة جنيهين مصريين عن المتر المربع فى الســـنة وهى قيمة زهيدة تكاد لا تذكر بجانب أهمية الاعلان الذى يتصفحه آلاف المسافرين فى اليوم الواحد .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا : —

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة — بمحطة مصر

مطبعة الرسالة